

الأيام الأخيرة بحسب يسوع

المحاضرة ٧: دمار أورشليم

أ. سي. سرول

أَعْتَقِدُ أَنَّ وَاحِدًا مِنْ أَكْثَرِ الْفُصُولِ إِذْهَالًا فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ بِرُمْتِهِ يَتَضَمَّنُ بِالطَّبَعِ الْأَحْدَاثَ الْمُحِيطَةَ بِدَمَارِ أُورُشَلِيمَ. وَلَيْسَ لَدَيْنَا سَرْدُ كِتَابِيٍّ لِهَذَا الْحَدِيثِ الْبَالِغِ الْأَهْمِيَّةِ الَّذِي تَمَّ فِي عَامِ ٧٠ مِيلَادِيًّا، لَكِنَّا نَمْلِكُ تَقْرِيرًا مُدْهَلًا لِشَاهِدِ عِيَانٍ، مُفْصَلًا بِدِقَّةٍ لِحِصَارِ أُورُشَلِيمَ وَكَافَّةِ الْأُمُورِ الَّتِي حَدَّثَتْ أَثْنَاءَ دَمَارِهَا، بِقَلَمِ الْمُؤَرِّخِ الْيَهُودِيِّ الشَّهِيرِ يُوسِيفُوسَ. أَحَدُ الْأُمُورِ الَّتِي تُفَاجِئُنِي هُوَ أَنَّ قَلَّةً مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ اسْتَعْرِفُوا وَقَفَّتَا لِقِرَاءَةِ تَارِيخِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سَرَدَهَا يُوسِيفُوسَ. وَكُلُّ شَخْصٍ أَعْرِفُهُ مِمَّنْ كَرَسُوا وَقَفَّتَا لِقِرَاءَةِ حُرُوبِ الْيَهُودِيَّةِ أَفَادَ بِأَنَّهُ كَانَ مَأْخُودًا تَمَامًا بِقِرَاءَةِ هَذَا التَّارِيخِ لِأَنَّهُ مُدْهَلٌ جَدًّا. لِيَا، مَا أُرِيدُ فِعْلُهُ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْيَوْمَ هُوَ الْفَاءُ نَظْرَةً وَجِيزَةً عَلَى بَعْضِ النِّقَاطِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي التَّفْهِيمِ الَّذِي وَصَلْنَا عَبْرَ التَّارِيخِ بِقَلَمِ فُلَافيُوسَ يُوسِيفُوسَ.

وُلِدَ يُوسِيفُوسُ فِي عَامِ ٣٧ مِيلَادِيًّا أَثْنَاءَ حُكْمِ الْإِمْبْرَاطُورِ كَالِيْجُولَا، وَلَا نَعْلَمُ تَحْدِيدًا السَّنَةَ الَّتِي تُوفِّيَ فِيهَا، لَكِنَّا نَعْرِفُ أَنَّهُ تُوفِّيَ بَعْدَ عَامِ ١٠٠. كَمَا نَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّ يُوسِيفُوسَ وُلِدَ فِي عَائِلَةٍ مِنَ الْكَهَنَةِ الْيَهُودِ، لَكِنَ عِنْدَمَا كَبُرَ، لَمْ يُصْبِحْ كَاهِنًا بَلْ عُضْوًا فِي حِزْبِ الْفَرِّسِيِّينَ. وَفِي حَدَائِثِهِ، أَبْلَى بِلَاءً حَسَنًا كَحَاكِمٍ، كَحَاكِمِ إِقْلِيمِيٍّ لِمِنْطَقَةِ الْجَلِيلِ، كَمَا أَنَّهُ عُرِفَ كَاسْتِرَاطِيَّيٍّ عَسْكَرِيٍّ وَكَانَ بِمَثَابَةِ جِنْرَالٍ فِي الْجَيْشِ الْيَهُودِيِّ. كَمَا أَنَّا نَعْرِفُ أَنَّهُ كَانَ مُؤَرِّخًا، أَيْضًا عَمِلَ أَثْنَاءَ حِصَارِ أُورُشَلِيمَ كَوَسِيطٍ بَيْنَ الْجَيْشِ الرُّومَانِيَّةِ وَالْقِيَادَةِ الرَّسْمِيَّةِ مِمَّنْ كَانُوا يُقَاوِمُونَ فِي أُورُشَلِيمَ. أَمَّا كَيْفَ حَدَّثَ ذَلِكَ؟ هَذَا مَا سَتْرَاهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

لَكِنَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، تَعَرَّضَتْ مُصْدَاقِيَّةُ يُوسِيفُوسَ التَّارِيخِيَّةِ لِهُجُومٍ عَنيفٍ مِنْ قِبَلِ الْعُلَمَاءِ الثَّقَادِ فِي الْمَدْرَسَةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ. لَطَالَمَا كَانَ يُوسِيفُوسُ وَاحِدًا مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ الْأَكْثَرِ احْتِرَامًا فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، لَكِنَ اتَّهَمَهُ نُقَادُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ بِالمُبَالِغَةِ فِي ذِكْرِ التَّفَاصِيلِ، وَبِالْقِيَامِ بِنَوْعٍ مِنْ تَعْظِيمِ الذَّاتِ فِي كِتَابَاتِهِ، بِحَيْثُ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ يَتَفَاخَرُ بِنَفْسِهِ. لَكِنَ جُزْءًا مِنَ الْأَمْرِ يَعُودُ إِلَى رُوحِ التَّقْدِ الْعَامَّةِ نَجَاهُ الْكُتَابِ الْقَدَامِي. وَعَلَى الرَّعْمِ مِنْ عَدَمِ تَأَكُّدِنَا مِنْ دِقَّةِ التَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي أَخْبَرْنَا بِهَا يُوسِيفُوسَ، فَنَحْنُ نَسْتَفِيدُ عَلَى الْأَقْلَ مِنْ وُجُودِ شَاهِدِ عِيَانٍ، كَانَ كَاتِبًا مَشْهُورًا فِي أَيَّامِهِ وَكَانَ يَتَمَتَّعُ بِمَكَانَةٍ فَرِيدَةٍ تُمْكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَرَوِيَ مَا جَرَى عِنْدَ طَرَفِي النَّزَاعِ. وَبِالتَّالِي، فَإِنَّ الْكُتَابَاتِ الَّتِي زَوَّدْنَا بِهَا بِالْعُهُ الْأَهْمِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا لِمُحَاوَلَةِ فَهْمِ أَهْمِيَّةِ مَا حَدَّثَ فِي عَامِ ٧٠ مِيلَادِيًّا.

لَقَدْ كَانَ يُوسِيفُوسُ مُلِمًّا جَدًّا بِكِتَابَاتِ أَنْبِيَاءِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَهُوَ نَفْسُهُ رَأَى دَمَارَ أُورُشَلِيمَ تَتِمِيمًا لِنُبُوءَةِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ. فِي الْوَاقِعِ، بِسَبَبِ بَعْضِ سِمَاتِ كِتَابَاتِ يُوسِيفُوسَ، قَدْ يَجِدُ الْبَعْضُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْعُرُورِ مُعْتَبِرًا نَفْسَهُ نَبِيًّا. لَكِنَ

إِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ مُهْتَمًّا بِالْأَهْمِيَّةِ الدِّينِيَّةِ لِمَا جَرَى فِي أُورُشَلِيمَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، فَإِنْ أَرَادَ تَكْوِينَ فِكْرَةٍ عَنِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَعَنِ الْعِتَادِ وَالْأَسْتِرَاتِيَجِيَّاتِ وَالْمُحَظَّطَاتِ، فَإِنَّ كِتَابَاتِ يُوْسَيْفُوسَ هِيَ كَنْزُ فِي هَذَا الصَّدَدِ. فَهُوَ يُقَدِّمُ وَصْفًا مُفْصَّلًا لِآلَةِ الْكَبْشِ وَكَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِهَا، وَالْمَنْجِنِيقِ وَالْأَنْوَاعِ الْأُخْرَى مِنَ الْأَسْلِحَةِ الَّتِي أَتَقَنَّهَا الرُّومَانُ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، فَكَانُوا دَائِمًا نَاجِحِينَ جِدًّا فِي مَعَارِكِهِمُ الْعَسْكَرِيَّةِ.

لَمْ يَتِمَّ دَمَارُ أُورُشَلِيمَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا، بَلْ إِنَّهُ بَدَأَ فِي فَتْرَةٍ مُبَكَّرَةٍ مَعَ اجْتِيَاكِ الرُّومَانِ لِفِلَسْطِينَ فِي أَوَاخِرِ السِّتِينِيَّاتِ، بِقِيَادَةِ أَحَدِ أَعْظَمِ جِزَالِيَتِهِمْ وَيُدْعَى فِسْبَازِيَان (Vespasian). وَفِي عَامِ ٦٨، أَيَّ فِي الْعَامِ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ الْإِمْبِرَاطُورُ نِيرُونُ، وَعَقِبَ وَفَاةَ نِيرُونُ، حَدَثَتْ فَتْرَةٌ صِرَاعٍ دَاخِلِيٍّ كَبِيرٍ أَوْ حَرْبٍ أَهْلِيَّةٍ فَعْلِيَّةٍ دَاخِلٍ رُومًا. فَكَانَ تَوَالٍ سَرِيعٍ لِلْأَبَاطِرَةِ لِلتَّرْتُّبِ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ وَفَاةِ نِيرُونِ. فَمُبَاشَرَةً بَعْدَ نِيرُونِ، حَكَّمَ رَجُلٌ يُدْعَى جَالْبَا (Galba)، الَّذِي لَمْ يَبْقَ عَلَى الْعَرْشِ إِلَّا لِشَهْوَرٍ قَلِيلَةٍ إِلَى أَنْ تَمَّ اغْتِيَالُهُ، ثُمَّ حَلَّ أُوْتُو (Otho) مَكَانَ جَالْبَا، وَأُوْتُو بِدَوْرِهِ حَكَّمَ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ وَتَعَرَّضَ لِلْإِغْتِيَالِ فِي عَامِ ٦٩، ثُمَّ حَلَّ مَكَانَهُ فِيتِيلْيُوسُ (Vitellius). أَمَّا فِيتِيلْيُوسُ فَاخْتَارَهُ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ فِي رُومًا لِيَكُونَ إِمْبِرَاطُورًا فِي سُلَالَةِ الْأَبَاطِرَةِ. لَكِنَّ الْجَيْشَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ رَفَضَ فِيتِيلْيُوسَ وَاسْتَدْعَى فِسْبَازِيَانَ، الْجِزَالِيَّ الْمُفْضَلَ لَدَيْهِ، لِيَعُودَ إِلَى الدِّيَارِ بَعْدَ اجْتِيَاكِ فِلَسْطِينَ لِكَيْ يَتَوَلَّى مَنْصِبَ الْإِمْبِرَاطُورِ. فَفَعَلَ فِسْبَازِيَانُ ذَلِكَ، حَيْثُ تَرَكَ سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ، وَعَادَ إِلَى الدِّيَارِ وَتَمَّتِ الْمُنَادَاةُ بِهِ إِمْبِرَاطُورًا لِرُومًا، فَأَرَسَى مُجَدِّدًا نَوْعًا مِنَ الْإِسْتِقْرَارِ فِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَحَكَّمَ كَأِمْبِرَاطُورٍ مِنْ عَامِ ٦٩ حَتَّى عَامِ ٧٩، ثُمَّ خَلَفَهُ ابْنُهُ تَيْطُسُ.

عِنْدَمَا عَادَ سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ، بَعْدَ الْمَرَاكِ الْأُولَى مِنَ اجْتِيَاكِ فِلَسْطِينَ، حَيْثُ تَمَّ اسْتِدْعَاؤُهُ إِلَى رُومًا، سَلَّمَ فِسْبَازِيَانُ مُهْمَةً قِيَادَةَ الْاجْتِيَاكِ لِابْنِهِ تَيْطُسَ، وَبِالتَّالِي، كَانَ تَيْطُسُ مَنْ تَرَأَسَ عَمَلِيَّةَ اجْتِيَاكِ أُورُشَلِيمَ. إِذَنْ، كَانَ تَيْطُسُ مَنْ تَرَأَسَ حَمْلَةَ غَزْوِ أُورُشَلِيمَ. لَكِنَّ مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّهُ عِنْدَمَا قَامَ الرُّومَانُ بِالْاجْتِيَاكِ، دَخَلُوا إِلَى فِلَسْطِينَ وَحَاصَرُوهَا وَسَيَّطَرُوا عَلَيْهَا مَدِينَةً تَلُو الْأُخْرَى، وَبَلَدَةً تَلُو الْأُخْرَى، وَشَقُّوا طَرِيقَهُمْ إِلَى الْمَعْقِلِ الْأَسَاسِيِّ لِلْقُوَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، أَيَّ بِالطَّبْعِ فِي أُورُشَلِيمَ. وَبَعْدَ غَزْوِ مَدِينَةِ يُوْدِفَت (Jotapata) الَّتِي تَقَعُ فِي شَمَالِ الْبِلَادِ وَكَانَ يَحْكُمُهَا الْجِزَالِيُّ يُوْسَيْفُوسُ، أَحَدَ الْبَرَاغَاتِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي حَدَثَتْ خِلَالَ الْاجْتِيَاكِ فِيمَا كَانَ فِسْبَازِيَانُ لَا يَزَالُ يَتَوَلَّى الْقِيَادَةَ. وَوَفَّقًا لِتَقَارِيرِ يُوْسَيْفُوسَ، تَمَّ ذَبْحُ أَكْثَرِ مِنْ ٤٠٠ أَلْفٍ مِنْ أَنْبَاءِ بَلَدَتِهِ أَثْنَاءَ دَمَارِ يُوْدِفَتِ، وَكَانَ جُزْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى الْمُقَاوَمَةِ الصَّارِيَّةِ الَّتِي أَبْدَاهَا جُنُودُهُ وَشَعْبُهُ فِي وَجْهِ الْعَزْوِ الرُّومَانِيِّ، وَهَذَا جُزْءٌ مُذْهَلٌ جِدًّا مِنَ التَّارِيخِ.

بَدَا الْأَمْرُ مِثْلَ الرِّوَايَاتِ، لِأَنَّهُ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَكَافُؤٌ بَيْنَ الْيَهُودِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ الصَّغِيرَةِ وَالْجُيُوشِ الرُّومَانِيَّةِ الْمُفْتَحِمَةِ، لَكِنَّهُمْ اسْتَحْدَمُوا شَتَّى أَنْوَاعِ الطَّرِيقِ الْبَارِعَةِ وَالْمُبْدِعَةِ لِصَدِّ الْعَزَاةِ، وَفِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ، لَمْ يَنْجُ إِلَّا شَخْصَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كُلِّهَا، وَمِنْ بَيْنِهِمْ يُوْسَيْفُوسُ الَّذِي كَانَ مُحْتَبِّئًا فِي بَيْتٍ أَوْ فِي حُفْرَةٍ، وَتَعَرَّضَ لِلْخِيَانَةِ

وَتَمَّ تَسْلِيمُهُ لِلْأَعْدَاءِ، وَكَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَتِمَّ إِعْدَامُهُ بِسُرْعَةٍ. لَكِنَّ يُوسِيفُوسَ يَقُولُ إِنَّ فِسبَارِيَانَ عَفَا عَنْهُ، لِأَنَّ فِسبَارِيَانَ كَانَ يَكُنُّ احْتِرَامًا وَإِعْجَابًا بِالشَّجَاعَةِ الَّتِي أَبَدَاهَا يُوسِيفُوسَ أَثْنَاءَ دِفَاعِهِ عَنِ يُوْدِفَتْ. إِذَنْ، مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّهُ تَمَّ أَخْذُ يُوسِيفُوسَ كَرَهِيْنَةٍ، أَخَذَهُ فِسبَارِيَانَ أَسِيرًا، حَيْثُ كَانَ تَقْرِيْبًا تَحْتَ الإِقَامَةِ الجُزَيْرِيَّةِ فِي مَقَرِّ سَكَنِ فِسبَارِيَانَ نَفْسِهِ، مِمَّا أَثَارَ شَقَى أَنْوَاعِ التَّسَاوُلَاتِ لَدَى الأَجْيَالِ المُقْبِلَةِ، لِأَنَّ اسْتِئْنَاءَ يُوسِيفُوسَ جَعَلَ كَثِيرِينَ يَعْتَبِرُونَهُ خَائِنًا أَوْ مُتَوَاطِنًا مَعَ الرُّومَانِ، لِأَنَّ فِسبَارِيَانَ وَمُعَاوِنِيهِ كَانُوا يَسْتَجُوْبُونَهُ دَائِمًا.

لَكِنَّ الأَمْرَ الَّذِي يَتَبَيَّنُ مِنْ خِلَالِ كِتَابَاتِ يُوسِيفُوسَ هُوَ أَنَّ يُوسِيفُوسَ كَانَ يُحِبُّ أُورُشَلِيمَ وَكَانَ مُوَلَعًا بِهَا. كَمَا كَانَ يَهُودِيًّا مِنَ الطَّرَازِ الأَوَّلِ، وَكَانَ يُحِبُّ المَدِينَةَ المُقَدَّسَةَ. وَآخِرُ أَمْرٍ أَرَادَ أَنْ يَشْهَدَ حُدُوثُهُ هُوَ دَمَارُهَا، فَكَمَّ بِالْحَرْبِيِّ إِذَا تَمَّ تَدْمِيرُ أُورُشَلِيمَ وَالهَيْكَلِ. وَمِنْ تَمَّ، فَإِنَّ فِسبَارِيَانَ، وَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ اسْتِئْنَاءُهُ إِلَى رُومًا لِيَحْلَلَ تَيْطُسَ مَكَانَهُ، كَانَ يَسْتَعْدِمُ يُوسِيفُوسَ كَمُفَاوِضٍ وَوَسِيطٍ، وَيُدْخِلُهُ تَحْتَ رَايَةِ الهُدْنَةِ إِلَى دَاخِلِ المَدِينَةِ لِيُكَلِّمَ الشُّيُوخَ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاوِمُونَ أَثْنَاءَ حِصَارِ أُورُشَلِيمَ، وَدَامَ الحِصَارُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا. فَبَدَّلَ يُوسِيفُوسَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِيُقْنِعَ القَادَةَ فِي المَدِينَةِ بِالاسْتِسْلَامِ، لِأَنَّهُ كَانَ مُفْتِنًا بِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى الجُيُوشِ فِي أُورُشَلِيمَ أَنْ يَصْمُدُوا أَمَامَ الحِصَارِ الرُّومَانِيِّ المُسْتَمِرِّ. فَكَانَ يُفَضِّلُ رُؤْيَةَ المَدِينَةِ تَسْتَسْلِمًا، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، كَانَ يَلْتَمِسُ مِنْ تَيْطُسَ أَنْ يُبْقِيَ الهَيْكَلَ وَيَصْفَحَ عَنِ المَدِينَةِ إِنْ اسْتَسَلَّمَ الجُنُودَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمُونَ أُورُشَلِيمَ. فَكَرَّسَ يُوسِيفُوسَ نَفْسَهُ لِمَهْمَةٍ مُحَاوَلَةِ التَّفَاوُضِ عَلَى الإِسْتِسْلَامِ، وَلِهَذَا السَّبَبِ، اعْتَبَرَهُ بَعْضُ اليَهُودِ خَائِنًا، لِأَنَّهُ دَعَا إِلَى اسْتِسْلَامِ المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ وَهُوَ يَهُودِيٌّ. لَكِنَّ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّ هَدَفَهُ كَانَ حِمَايَةَ الهَيْكَلِ وَالمَدِينَةِ مِنَ الدَّمَارِ الَّذِي حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ.

أَيْضًا فِي كِتَابَاتِهِ وَفِي وَصْفِهِ لِلأَحْدَاثِ المُرَافِقَةِ لِدَمَارِ أُورُشَلِيمَ، رَأَى يُوسِيفُوسَ يَدَ العِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ فِي تِلْكَ الكَارِثَةِ، وَحَدَّرَ شَعْبَهُ قَائِلًا لَهُمْ إِنَّ دَيْنُونَةَ اللهِ سَتَنَسَكِبُ عَلَيْهِمْ. هَذَا أَمْرٌ مُذْهَلٌ فِي صَوِّهِ تَنَاوُلُنَا لِلأَسْئَلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِدَلَالَاتِ الأُظْرِ الزَمَنِيَّةِ فِي الحَدِيثِ عَلَى جَبَلِ الزَيْتُونِ، لِأَنِّي حَاوَلْتُ أَنْ أُثْبِتَ أَنَّ نِهَايَةَ الجِيلِ الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا يَسُوعُ فِي الحَدِيثِ عَلَى الجَبَلِ لَا تُشِيرُ إِلَى نِهَايَةِ العَالَمِ بَلْ إِلَى نِهَايَةِ الجِيلِ اليَهُودِيِّ، وَهُوَ كَانَ يُحَدِّدُ بَنِي جِيلِهِ مِنْ دَيْنُونَةِ اللهِ الوَشِيكَةِ وَالأَكِيدَةِ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَالهَيْكَلِ. وَمِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ يَهُودِيَّةٍ، وَجَهَ يُوسِيفُوسَ التَّحْذِيرِ نَفْسَهُ لِشَعْبِهِ مُسْتَشْهِدًا بِنُصُوصِ مِنَ العَهْدِ القَدِيمِ وَبِكَلَامِ أَنْبِيَاءِ مِنَ العَهْدِ القَدِيمِ، لِيُحَدِّرَ الشَّعْبَ قَائِلًا إِنَّ هَذِهِ الدَيْنُونَةَ مُوَعُودٌ بِهَا بِسَبَبِ شُرُورِ ذَلِكَ الجِيلِ. وَمِنَ اللَافِتِ لِلنَّظَرِ أَيْضًا بَيْنَمَا تَقْرَأُونَ ذَلِكَ وَتَتَأَمَّلُونَ فِي بَعْضِ التَّفَاصِيلِ أَنَّهُ حِينَ تَكَلَّمَ يَسُوعُ عَنْ ذَلِكَ الجِيلِ بِالدَّاتِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، اعْتَبَرَهُمْ أَشْرَارًا لِدرَجَةِ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيلٌ. وَقَيِّمُ يُوسِيفُوسَ بَنِي جِيلِهِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا قَائِلًا إِنَّهُمْ الأَكْثَرُ شَرًّا عَلَى الإِطْلَاقِ.

وَالآنَ، أَوْدُ أَنْ أَسْتَغْرِقَ بَعْضَ الْوَقْتِ لِلتَّأْمُلِ فِي بَعْضِ هَذِهِ التُّبَوَّاتِ أَوْ التَّصْرِيحَاتِ أَوْ الْأَوْصَافِ الْمُحَدَّدَةِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابَاتِ يُوسَيْفُوسَ، وَهِيَ لَمْ تَرِدْ فِي كِتَابَاتِ يُوسَيْفُوسَ فَحَسَبُ، بَلْ أَيْضًا فِي كِتَابَاتِ الْمُؤَرِّخِ الرُّومَانِيِّ تَاسِيْتُوسَ (Tacitus). وَيُؤَكِّدُ تَاسِيْتُوسُ فِي حَالَاتٍ عِدَّةٍ وَمِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ رُومَانِيَّةٍ عَلَى سَرْدِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَصَلْتَنَا مِنْ يُوسَيْفُوسَ. وَأَحَدُ التَّقَارِيرِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا السَّرْدِ مَوْجُودٌ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ كِتَابِ يُوسَيْفُوسَ وَعُنْوَانُهُ "الْحُرُوبُ الْيَهُودِيَّةُ" (*Jewish Wars*)، الَّذِي يَتَطَرَّقُ فِيهِ إِلَى الْهُجُومِ عَلَى أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ الَّذِي تَمَّ مِنْ خِلَالِ اسْتِعْمَالِ الْحِجَارَةِ، وَهِيَ حِجَارَةٌ بَيْضَاءُ كَبِيرَةٌ وَضَخْمَةٌ جِدًّا تَمَّ قَذْفُهَا بِالْمَنْجَنِيْقِ نَحْوِ الْأَسْوَارِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْوَارُ سَمِيكَةً جِدًّا، فَصَمَدَتْ أَمَامَ هُجُومِ تِلْكَ الصُّخُورِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَمَّ قَذْفُهَا عَلَيْهَا، كَمَا صَمَدَتْ أَمَامَ الْكِبَاشِ الْمُدْمَرَةِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا.

عَلَى هَامِشِ ذَلِكَ، نَتَذَكَّرُ أَنَّ أَسْوَارَ الْهَيْكَلِ كَانَتْ مَصْنُوعَةً مِمَّا يُسَمِّيهِ الْمُؤَرِّخُونَ الْآنَ بِالْحِجَارَةِ الْهَيْرُودُسيَّةِ، فَكَانَ الْهَيْكَلُ يُعْرَفُ بِالْهَيْرُودُسيِّ، وَالْحِجَارَةُ الَّتِي تَمَّ اسْتِعْمَالُهَا لِتَشْيِيدِ الْهَيْكَلِ كَانَتْ ضَخْمَةً جِدًّا، وَكَانَ حَجْمُهَا هَائِلًا جِدًّا. إِذَا أَلْفَيْتُمْ نَظْرَةً عَلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ لَدَيْكُمْ، وَنَظَرْتُمْ إِلَى الْحِدَارِ مِنْ حَيْثُ عَرَضُهُ وَارْتِفَاعُهُ وَتَخَيَّلْتُمْ أَنَّ عُمُقَ الْحَجَرِ الْوَاحِدِ فِيهِ وَسَمْكُهُ يَبْلُغَانِ حَوَالِي أَرْبَعَةٍ أَوْ سِتَّةِ أَقْدَامٍ، عِنْدَيْدِ تَكْوِينِ فِكْرَةٍ عَنْ مَدَى ضَخَامَةِ تِلْكَ الْحِجَارَةِ الَّتِي تَمَّ اسْتِعْمَالُهَا لِإِنْبَاءِ أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ وَالْهَيْكَلِ. لِذَا، لَا عَجَبَ فِي صُمُودِ تِلْكَ الْأَسْوَارِ أَمَامَ هَجَمَاتِ الرُّومَانِ. وَبِالطَّبْعِ، تِلْكَ الْحِجَارَةُ الَّتِي تَمَّ قَذْفُهَا مِنْ خِلَالِ الْأَدْوَاتِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ لَمْ يَتَمَّ قَذْفُهَا عَلَى الْأَسْوَارِ فَحَسَبُ، بَلْ كَانَ يَتَمَّ قَذْفُهَا أَيْضًا فَوْقَ الْأَسْوَارِ، فَأَحْدَثَتْ ضَرَرًا كَبِيرًا فِي الْمَبَانِي دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، وَأَدَّتْ إِلَى إِصَابَاتٍ فِي صُفُوفِ الشَّعْبِ الَّذِينَ تَعَرَّضُوا لِحُرُوجِ أَوْ قَتْلُوا بِفِعْلِ تِلْكَ الْحِجَارَةِ ضِمْنَ الْكَمِيَّةِ الْمُدْهِلَةِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي وَصَفَهَا يُوسَيْفُوسُ بِأَنَّهَا وَابِلٌ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَلَقَدْ كَانَتْ صُخُورًا بَيْضَاءَ.

ذَكَرَ يُوسَيْفُوسُ أَنَّهُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ، رَأَى الْيَهُودَ الصُّخُورَ مُقْبِلَةً نَحْوَهُمْ لِأَنَّهَا كَانَتْ بَيْضَاءَ اللَّوْنِ، وَبِالتَّالِيِ، فَلَمْ يَلَاظُوهَا نَظْرًا لِلصَّحِيحِ الْكَبِيرِ الَّذِي أَحْدَثْتُهُ فَحَسَبُ، بَلْ لَاحَظُوهَا بِوُضُوحٍ قَبْلَ سُقُوطِهَا نَظْرًا لِطَرِيقِهَا. وَهَكَذَا، كَانَ الْحُرَّاسُ الْجَالِسُونَ عَلَى الْأَبْرَاجِ يُوجِّهُونَ إِنْدَارًا لِلشَّعْبِ لَدَى تَشْغِيلِ الْأَدْوَاتِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ وَأَنْطِلَاقِ الْحِجَارَةِ مِنْهَا، وَكَانُوا يَصْرُخُونَ بِصَوْتٍ عَالٍ لِيَحْذَرُوا الشَّعْبَ قَائِلِينَ: "الْحِجَارَةُ آتِيَةٌ". إِنَّهُ تَحْذِيرٌ بَسِيطٌ: "الْحِجَارَةُ آتِيَةٌ". وَبِالتَّالِيِ كَانَ الْأَشْخَاصُ الْوَاقِفُونَ فِي طَرِيقِهَا يَتَحَرَّكُونَ وَيَزْتَمُونَ عَلَى الْأَرْضِ لِكَيْ يَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَكَانَتْ الْحِجَارَةُ تَقَعُ دُونَ أَنْ تُؤْذِيَهُمْ.

كَشَفَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ عَنْ وُجُودِ اخْتِلَافٍ فِي تَرْجَمَةِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ، وَأَنَّهُ وَرَدَتْ فِي بَعْضِ الْمَخْطُوطَاتِ بَدَلًا مِنْ عِبَارَةِ "الْحِجَارَةُ آتِيَةٌ"، وَرَدَتْ عِبَارَةُ "الْإِبْنُ آتٍ". وَيَعْتَبِرُ الْبَعْضُ أَنَّ الْأَمْرَ مُرْتَبِطٌ بِتَفْلِيدٍ كَانَ مُنْتَشِرًا فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ بِحَسَبِ أَحَدِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَهُوَ أَنَّ الرَّسُولَ يَعْقُوبَ، الَّذِي كَانَ أَخَا الْمَسِيحِ، كَانَ يَشْهَدُ عَلَنًا فِي الْهَيْكَلِ قَائِلًا: "سَيَأْتِي ابْنُ الْإِنْسَانِ

عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ"، وَدَفَعَ ثَمَنَ هَذِهِ الشَّهَادَةِ بِدَمِهِ. كَتَبَ أَحَدُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّهُ يَبْدُو مِنَ الْمُحْتَمَلِ جِدًّا أَنَّ الْيَهُودَ وَفِي إِطَارِ تَجْدِيفِهِمُ الْجَامِعَ وَالْمُتَهَوِّرَ عِنْدَمَا رَأَوْا تِلْكَ الْحِجَارَةَ الْكَبِيرَةَ الْبَيْضَاءَ تَتَطَايَرُ فِي الْجَوِّ، صَرَخُوا: "الْإِبْنُ آتٍ"، لَيْسَخَرُوا مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ تَنَبَّأُوا بِعَوْدَةِ يَسُوعَ. عَلَى آيَةِ حَالٍ، فَقَدْ كَثُرَتِ الْمُنَاقَشَاتُ الْجَدَلِيَّةُ حَوْلَ هَذَا الْجُزْءِ. وَبِالإِضَافَةِ إِلَى هَذِهِ التَّفَاصِيلِ، يَقُولُ لَنَا يُوسِيفُوسُ إِنَّ مَجَاعَةً شَدِيدَةً صَرَبَتِ السُّكَّانَ، فَمَاتَ كَثِيرُونَ فِي أُورُشَلِيمَ جُوعًا بِسَبَبِ الْحِصَارِ الطَّوِيلِ.

إِنْ كُنْتَ قَدْ ذَهَبْتَ يَوْمًا إِلَى فَلَسْطِينِ، فَرُبَّمَا تَكُونُ قَدْ قُضِمْتَ بِزِيَارَةِ جَبَلِ الزَيْتُونِ. وَقَدْ أَطْلَقْتَ عَلَيْهِ تَسْمِيَةً جَبَلِ الزَيْتُونِ حَيْثُ يَقَعُ بُسْتَانُ جَسِيمَانِي، وَهُوَ بُسْتَانٌ يَتَّصِفُ بِمَعْصَرَةِ زَيْتُونٍ، حَيْثُ ذَهَبَ يَسُوعُ وَصَلَّى مُتَأَلِّمًا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تَمَّتْ حَيَاتُهُ فِيهَا. لَكِنَّ ذَلِكَ الْمُنْحَدِرَ عَبْرَ الْوَادِي انْطِلَاقًا مِنْ أُورُشَلِيمَ عِنْدَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْ بَيْتِ عَنِيَا كَانَ عِبَارَةً عَنِ عَابَةِ كَبِيرَةٍ وَكثيفةٍ جِدًّا تَتَّصِفُ بِأَشْجَارِ زَيْتُونٍ هَائِلَةٍ وَضَخْمَةٍ عُمُرُهَا حَوَالِي ثَلَاثِمِائَةٍ أَوْ أَرْبَعِمِائَةٍ سَنَةٍ. وَإِنْ ذَهَبْتَ إِلَى هُنَاكَ الْيَوْمَ فَلَنْ تَرَى أَيَّ شَجَرَةٍ زَيْتُونٍ فِي جَبَلِ الزَيْتُونِ، هَذَا لِأَنَّهُ أَتْنَاءَ الْحِصَارِ الَّذِي دَامَ فَتْرَةً طَوِيلَةً قَامَ الرُّومَانُ بِقَطْعِ كُلِّ شَجَرَةٍ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَدِرِ، وَاسْتَخْدَمُوا خَشَبَهَا كَحَطَبٍ وَقُودٍ لَيْسَتْ دَفِينُوا بِهِ. وَهَذِهِ وَاحِدَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَعَلَّمْنَاهَا مِنْ كِتَابَاتِ يُوسِيفُوسَ.

لَكِنَّ بِالطَّبَعِ، عِنْدَمَا اشْتَدَّتِ الْمَجَاعَةُ، لَجَأَ النَّاسُ بِالْفِعْلِ إِلَى أَكْلِ لُحُومِ الْبَشَرِ. وَنُجِّرُنَا يُوسِيفُوسُ بِقِصَّةِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُرْضِعُ طِفْلَهَا، وَلَمَّا بَدَأَتْ تَتَصَوَّرُ جُوعًا عَمَدَتْ إِلَى شَوْيِ طِفْلِهَا وَأَكَلَتْهُ، وَأُدْرَجَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْأُمُورِ فِي خَاتَةِ الْأَعْمَالِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي حَدَّثَتْ.

لَكِنَّ أَيْضًا، رُبَّمَا الْمُسْكَلَةُ الْأَضْعَبُ الَّتِي وَاجَهْنَاهَا فِي الْحَدِيثِ عَلَى جَبَلِ الزَيْتُونِ وَتَطْبِيقِهِ عَمَلِيًّا عَلَى دَمَارِ الْهَيْكَلِ تَكْمُنُ فِي تَنَبُّؤَاتِ يَسُوعَ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعَلَامَاتِ فِي السَّمَاءِ وَالْإِضْطِرَابَاتِ فِي الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ. وَرُبَّمَا وَاحِدٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُذْهِلَةِ مِنَ السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ لِمَا جَرَى مَوْجُودٌ فِي كِتَابَاتِ يُوسِيفُوسَ وَتَاسِيْتُوسَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. فَتَاسِيْتُوسُ يُشِيرُ مَثَلًا إِلَى ظُهُورِ عِلَامَاتٍ فِي السَّمَاءِ تَمَثَّلَتْ بِظُهُورِ مُدَنَّبٍ قَبْلَ وَقُوعِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ. فَفِي عَامِ ٦٠ تَقْرِيبًا، وَخِلَالَ حُكْمِ نِيرُونَ، ظَهَرَ مُدَنَّبٌ فِي السَّمَاءِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ، فَاعْتَبَرَهُ النَّاسُ نَذِيرَ شَوْمٍ يُنبِئُ بِمُحْدُوثِ تَغْيِيرٍ جَدْرِيٍّ قَرِيبًا عَلَى السَّاحَةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَيَقُولُ تَاسِيْتُوسُ: "كَمَا لَوْ أَنَّ نِيرُونَ كَانَ قَدْ خُلِعَ عَنِ عَرْشِهِ بِالْفِعْلِ، فَبَدَأَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ مَنْ سَيَكُونُ خَلْفَهُ". فَأَخَذَ نِيرُونَ تَهْدِيدَ الْمُدَنَّبِ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ، وَلَمْ يُخَاطِرْ أَبَدًا عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِ سُوَيْتُونِيُوسَ (Suetonius). "فَتَمَّ نَفْيُ جَمِيعِ أَوْلَادِ الرِّجَالِ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِمْ مِنْ رُومَا، فِيمَا تَصَوَّرُوا جُوعًا حَتَّى الْمَوْتِ، أَوْ تَسَمَّمُوا فِي عَهْدِ نِيرُونَ. وَعَاشَ نِيرُونَ لِسَنَوَاتٍ عِدَّةٍ بَعْدَ ظُهُورِ الْمُدَنَّبِ". ثُمَّ ظَهَرَ الْمُدَنَّبُ هَالِي (Halley) فِي عَامِ ٦٦ مِيلَادِيًّا، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْتَحَرَ نِيرُونَ، فَرَبَطَ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ بَيْنَ ظُهُورِ الْمُدَنَّبِ هَالِي وَانْتِحَارِ نِيرُونَ.

وَرَبَّمَا الْحَدِيثُ الْأَكْثَرُ غَرَابَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْنَا بِقَلَمِ يُوسِيفُوسَ وَرَدَ فِي مَقْطَعٍ سَأَخْتُمُ هَذِهِ الْمُحَاضِرَةَ بِقِرَاءَتِهِ لَكُمْ، لِأَنَّهُ مَقْطَعٌ غَرِيبٌ جِدًّا. كَتَبَ يُوسِيفُوسُ الْكَلِمَاتِ الْآتِيَةَ: "إِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْأُمُورِ، إِشَارَةٌ إِلَى الْمُدْتَبَاتِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ،] بَعْدَ مَرُورِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ عَلَى عِيدِ أَرْتِمِيسِيُوسَ (Artemisius)، وَفِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَالْيَوْمِ الْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، حَدَثَ أَمْرٌ اسْتِنَائِيٌّ وَمُدْهَلٌ. أَفْتَرِضُ أَنَّ سَرْدَهُ يَبْدُو أَشْبَهَ بِأَسْطُورَةٍ، إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شُهُودٌ عَيَانٍ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْأَحْدَاثُ الَّتِي تَمَّتْ بَعْدَهُ مُهِمَّةً جِدًّا بِمَا يَسْتَلْزِمُ ظُهُورَ مِثْلِ هَذِهِ الْعَلَامَةِ. فَقَبْلَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، ظَهَرَتْ مَرَكَبَاتٌ وَجِيُوشٌ مُسَلَّحَةٌ تَطُوفُ بَيْنَ السَّحَابِ وَتُحِيطُ بِالْمَدِينَةِ. وَفِي لَيْلَةِ الْعِيدِ الَّذِي نُسَمِّيهِ يَوْمَ الْخُمْسِينَ، وَفِيمَا كَانَ الْكَهَنَةُ يَدْخُلُونَ إِلَى الدَّارِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْهَيْكَلِ كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ لِيَمَارِسُوا أَعْمَالَهُمُ الْكَهْنُوتِيَّةَ الْمُقَدَّسَةَ، قَالُوا إِنَّهُمْ فِي الْأَوَّلِ، شَعَرُوا بِزَلْزَلَةٍ، وَسَمِعُوا ضَجِيجًا كَبِيرًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ، سَمِعُوا أَصْوَاتَ جُمُوعٍ عَفِيفَةٍ وَهِيَ تَصْرُخُ "دَعُونَا نَرْحَلُ مِنْ هُنَا".

مَا يُسَجِّلُهُ يُوسِيفُوسُ فِي هَذَا الصَّدَدِ يُشْبِهُ تَقْرِيبًا مَا اخْتَبَرَهُ النَّبِيُّ الْيَسُوعُ فِي دُونَانَ حِينَ انْفَتَحَتْ عَيْنَا غُلَامِهِ، فَرَأَى آلَافَ الْمَلَائِكَةِ وَمَرَكَبَاتِ النَّارِ تُحِيطُ بِالْيَسُوعِ. وَكَذَلِكَ انْسَكَبَ الدَّيْنُونَةُ فِي سَفَرِ حَزَقِيَالِ الَّتِي تَمَثَّلَتْ بِرَحِيلِ الرُّوحِ الْقُدُسِ مِنْ مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ، وَكَلَامِ اللَّهِ لِلدَّيْنُونَةِ "إِيحَابُودُ" أَي زَوَالِ الْمَجْدِ. "نَحْنُ رَا حِلُونَ". وَمَا أَحَدُهُ مُدْهَلًا فِي تَقْرِيبِ يُوسِيفُوسَ الْمُخْتَصِرِ هَذَا هُوَ تَحْفُظُهُ فِي سَرْدِ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ جِدًّا بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ سَيَعْتَبِرُونَهُ مَجْنُونًا بِسَبَبِ إِخْبَارِهِ تِلْكَ الْقِصَّةِ. لَكِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ أَرْغَمَ عَلَى ذِكْرِ ذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ، السَّبَبُ الْأَوَّلُ هُوَ أَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْأَشْخَاصِ شَهِدُوا ذَلِكَ الْحَدِيثَ، وَالسَّبَبُ الثَّانِي هُوَ أَنَّهُ يَتَسَوَّى مَعَ خُطُورَةِ تِلْكَ اللَّحْظَةِ التَّارِيخِيَّةِ. إِذَنْ، فَلَقَدْ رَأَى فِي سُقُوطِ أُورُشَلِيمَ وَدَمَارِ الْهَيْكَلِ انْتِقَامًا لِلَّهِ مِنْ شَعْبِهِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُونَ" وَ"أَدَهَشَنِي الْأَلَمُ".